# الفصل السابع

## يعقوب عند مخاضة نهر البيوق

بعد أن افترق « يعقوب » عن « لابان » عند ركام الأحجار ، سار فى طريقه فى رفقة زوجاته وأبنائه وقطعان ما شيته ، متجها الى الجنوب، تاركا وراءه جبال جلعاد الشاهقة الباردة التى تكسوها الغابات ، وشق طريقه فى ربوع وادى يبوق العميق الذى يقع على بعد آلاف الأقدام أسفل الجبل • والهبوط الى هذا الوادى من فوق قمم الجبال يستغرق عدة ساعات • فاذا وصل المسافر الى أسفل تلك الوهدة العميقة بعد هذه الرحلة الشاقة ، فانه يشعر أنه قد مر فى أجواء طبيعية مختلفة ، فمن الجبال العالية التى يهب فيها النسيم البارد وتغطيها غابات الصنوبر يهبط الى قرية « برمة » ذات الجو الصحى المنعش خلال مسافة ساعة من الزمن . حيث تنتشر أشجار الفاكهة والشجيرات والأزهار . وحيث يطفىء المسافر ظمأه من المياه الباردة التى تتدفق من نبع جميل عندما يخلد لراحة فى الظهيرة • فاذا استمر فى الهبوط فانه يسير منحدرا الى مسافة ألفى قدم حيث يشعر بأنه يتنسم الهواء الحار وسط مزروعات غنية شبه استوائية تنتشر فى أعماق وادى نهر يبوق الكبير • وهذا الأخدود موحش ورائع كل الروعة ، وعلى جانبيه ترتفع الصخور فى شكل عمودى على وجه التقريب الى ارتفاع شاهق • فاذا نظرت الى أعلى من خلال الصخور الناتئة أو المنحدرات ، فان بصرك يصطدم بزرقة السماء • أما عند أسفل هذا الأخدود العتى ، فيتدفق نهر اليبوق بتياره القوى • وتختفى مياهه الزرقاء ، وإن يكن

لمسافة قصيرة . وسط غابة كثيفة من أشجار الدفلى الطويلة التى تضفى أزهارها القرمزية لونا ذهبيا على لوهدة فى لصيف البكر • ويجرى لنهر الازرق ، كما اصطلح على تسميته اليوم ، فى سرعة وقوة ، اذ قد يصل ارتفاع مياهه ، حتى فى الأيام العادية الى سرج الفرس ، بل انه فى بعض الأحيان يتعذر الخوض فى مجراه حيث تفيض مياهه على الأعشاب والأحراش التى تنمو على شاطئيه المرتفعين • وطريق لصعود من مخاضة النهر عند الجهة المقابلة له ، أى فى الجانب الجنوبى ، منحدر للغاية ، ذلك أن الطريق يلتف فى أثناء صعوده ، بحيث يتحتم على المسافر أن يترجل ويقود حصانه • وفى هذا الطريق الصاعد الطويل كان يعقوب يسير وحده متلكئا الى جانب المخاضة وقت الغسق ، وهو يرقب البعير المتعب ويسمع صياح الرعاة وقد أخذت أصواتهم تخفت فوقه شيئا فشيئا ، حتى اختفى مرآهم كما اختفت أصواتهم على البعد وفى الظلام •

وربما ساعدنا هذا المنظر على تصور المغامرة الغريبة التى خاضها يعقوب عند عبوره النهر • وكان قد أرسل قدامه زوجاته وأولاده وخادماته ليخوضوا النهر على ظهور الجمال • أما قطعان ما شيته ورعاتها فقد سبقت القافلة أو لحقت بها • وبذلك بقى يعقوب وحده فى مخاضة النهر • ولقد كان الوقت ليلا ، وكانت ليلة من ليالى الصيف يسطع فيها القمر فيما يبدو ، اذ لم يكن من المعقول أن يحاول يعقوب عبور النهر بهذه القافلة الطويلة فى الظلام ، أو فى الشتاء ، عندما يكون مجرى النهر سريعا وعميقا • ومهما يكن الأمر فقد بدا ليعقوب رجلا أخذ يناضل مع يعقوب طوال الليل حتى بزع الصباح وأخذ ضوؤه يتسرب الى ذروة الغابات التى تنتشر فى أعلى جوانب الوادى فوق الرجلين المتصارعين فى ظلا الوادى • ثم نظر هذا الشخص الغريب الى أعلى وأبصر الضوء فقال ليعقوب :«أطلقنى لأنه قد طلع الفجر»(١)•

---

(١) سفر التكوين ، الاصحاح الثانى والثلاثون آية ٢٦ .

وعلى هذا النحو كذلك انتزع جوبيتر نفسه من بين أذرع « الخمينا » المغرمة به قبل نزوغ الغسق ، كما اختفى شبح والد « هملت » عند صياح الديكة • وكذلك حذر مفيستوفيليس فاوست وهو فى سجنه وضربات المشنقة ترن فى أذنه ، أن يسرع لأن النهار ، وهو اخر نهار فى حياة « جريتشى » قد أوشك عى البزوغ • ولكن يعقوب تعلق بالرجال الغريب وقال له : « لا أطلقك ان لم تباركنى » (١) وعند ذاك سأله الرجل الغريب عن اسمه ، وعندما ذكر يعقوب اسمه أجابه هذا الشخص قائلا : « لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » (٢) • ولكن عندما استفسر يعقوب عنه قائلا : « أخبرنى باسمك » (٣) • رفض هذا الرجل أن يذكر اسمه ولكنه منح يعقوب البركة التى طلبها واختفى • وعند ذاك أطلق يعقوب على هذا المكان اسم « فنيئيل » أى « وجه الرب » • فلقد فسر هذا الاسم بقوله : لأنى نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسى » (٤) • وسرعان ما أشرقت الشمس بعد ذلك وسطعت على وجه يعقوب • ولكنه وجد نفسه يعرج إثر ذلك ، اذ كان خصمه قد مس عظمة فخذه فى أثناء صراعه معه • « لذلك لايأكل بنو اسرائيل عرق النسا الذى على حق الفخذ الى هذا اليوم ، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا » (٥) •

والقصة على هذا النحو تبدو غامضة ، ومن المحتمل ان مؤلفى سفر التكوين قد أغفلوا بعض ملامحها الأساسية عندما اشتموا فيها رائحة الوثنية • ومن ثم فان أى تفسير لها انما يعتمد على الفرض • ولكننا اذا ربطنا هذه القصة بالملامح الطبيعية للمكان الذى جرت فه حوادثها

---

( ١ ) سفر التكوين . نفس الاصحاح والآية .
( ٢ ) سفر التكوين . نفس الاصحاح آية ٢٨ .
( ٣ ) سفر التكوين . نفس الاصحاح آية ٢٩ .
( ٤ ) سفر التكوين . نفس الاصحاح آية ٣٠ .
( ٥ ) سفر التكوين . نفس الاصحاح آية ٣٢ .

من ناحية ، واذا ربطناها بالأساطير الأخرى المشابهة لها التى سنعرض لها وشيكا من ناحية أخرى • فاننا نفترض بادىء ذى بدء أن هذا الغريم الغامض الذى تصارع معه يعقوب هو روح النهر أو شيطانه ، وأن صراع يعقوب معه كان من أجل انتزاع البركة منه • وهذا يفسر سبب تخلف يعقوب عن قافلة النساء والأطفال وقطعان الماشية ، وبقاءه وحده فى الظلام فى مخاضة النهر • وربما حسب يعقوب أن اله النهر المنعزل يفزع من وقع أقدام القافلة وأصوات خوضها المياه ، فيدفعه هذا لأن يختفى فى بحيرة عميقة ، أو بين أشجار الدفل التى تنمو على مسافة آمنة بعيدة ، حتى اذا ما مر الركب وساد الهدوء النهر فيما عدا صوت الخرير الرتيب الهامس ، دفعه الفضول لأن يخرج من مخبئه ليستطلع أحوال النهر ويعرف سبب هذا الهرج والمرج • وعند ذاك يكون يعقوب الماكر فى انتظاره ، فينقض عليه ويتشبث به حتى يحصل منه على البركة التى يسعى اليها • وقد أمسك « مينيلاوس » على هذا النحو باله البحر « بروتيوس » الذى كان يرقد منعزلا وقت الظهيرة بين الحواجز وفوق الرمال الصفراء ، ليرغمه على أن يخبره بتكهناته وهو ممتنع عن ذلك • وعلى هذا النحو كذلك أمسك « بيليوس » بالهة البحر « ثيتيس » واتخذها زوجة له • وفى كلتا الأسطورتين الاغريقتين حاول روح الماء ذو الجسد الطبع الأملس ، أن ينزلق من قبضة آسره مرة بعد الأخرى مغيرا شكله من أسد الى حية ، ومن حية الى سائل وهكذا ، حتى وجد فى النهاية أن محاولاته تضيع هباء وأنه ان ينجح فى الانفلات من يد خصمه العنيد ، فرضخ لمطلبه وأعطاه المنحة التى يسعى اليها • وكذلك حول اله النهر أشيليوش نفسه الى حية ثم الى ثور لكى ينفلت من البطل الجرىء هرقل الذى أمسك به لكى يستولى على « ديجانيرا » الجميلة ، ولكن محاولات آله النهر ضاعت هباء •

وكل هذه الأساطير المشابهة لأسطورة يعقوب تؤكد أن غريم يعقوب فى الرواية الأصلية لهذه الحكاية قد حاول أن يغير شكله لكى يهرب من آسره اللحوح • وربما اتضح أثر هذا التحول فى الحكاية

التى تحكى عن ظهور الرب للنبى « اليا » عند جبل « حوريب » • فربما تحول الرب المتمنع فى الشـــكل الأصلى لهذه الحكاية الجلية الى ريح وزلزال ونار على التوالى لكى يهرب من النبى ، ولكنـــه هـــزم أمـــام اصراره ، وكشف له عن نفسه فى صوت خافت رقيق (١) • ذلك أنـــه من الملاحظ أن أرواح المياه لا تنفرد من بين الكائنات الخارقة للعادة بمنحها البركة أو النبوءة لهؤلاء الذين ينتظرونها ويمسكون بها • فقد قيل ان الاله « المفريجيانى » « سيلينوس » كان يمتلك على الرغم من عاداته الطائشة ، مقدرة كبيرة على المعرفة التى لم يكشف عنها مضطرا الا الى « بروتيوس » • وقد استطاع « ميداس » ملك « فريجيـــا » أن يمسك بهذا الاله فى لحظة ضعف ، عندما قـــدم له الملك خمـــرا ممزوجا بماء نبع بعينه ، فشربه متلطفا • فلما صحا من سكره وجـــد « سيلينوس » نفسه أسيرا ، وكان عليه أن يؤنب الملك بحديث طويل عن الدنيا وغرور الانسان ، حتى أطلق الملك سراحه • وقد احتفظ لنا بعض كتاب العصر القديم المبجلين بنص دقيق فى قايل أو كثير لتلك الخطبة التى ألقاها الاله السكير المرح بجـــانب نبع أو بجانـــب من الزهور • كما قيل أن « نوما » قد أمسك بالالهين الساذجين « بيكوس » و « فانوس » عن طريق خدعة شبيهة بخدعة ميداس وارغماهما على أن يأتيا « بجوبيتر » من السماء عن طريق سحرهما وتعاويذهما •

وربما استطعنا أن ندعم وجهة نظرنا فى أن خصم يعقوم الذى ظهر له عند مخاضة نهر اليبوق ، هو إله النهر نفسه ، اذا لاحظنا أنه كان من عادة كثير من الشعوب استرضاء أرواح الأنهار التى تخشى

---

( ١ ) « واذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبـــال وكسرت الصخور أمام الرب . ولم يكن الرب فى الريح . وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب فى الزلزلة . وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب فى النار وبعد النار صوت منخفض خفيف » .
( سفر الملوك الأول ــ الاصحاح التاسع عشر من آية ١١ ــ ١٣ ) .

لخطورتها وتقلبها • وينصح « هيزيود » من يعبر النهر قائلا : « عليك قبل أن تعبر النهر ، أن تنظر الى المياه الجارية وأن تصلى وتغسل يديك . لأن من يخوض النهر دون أن يغسل يديه ، فانه يتعرض لغضب الآلهة » • وعندما عزم « كليومينيس » ملك اسبرطة على غزو « أرجوليس » ، جاء بجيشه عند شواطىء « أراسينوس » وقدم ضحية للنهر • ولكن النبوءة نصحت بعدم عبور النهر • عند ذاك ، أشار الملك أنه على الرغم من اعترافه بوطنية اله الماء فى عدم خداعه قومه . فانه يصر على غزو « أرجوليس » • ثم قاد جيشه الى الشاطىء وقدم ثورا ضحية للنهر ونقل جيشه فى سفن الى بلاد العدو • وعندما تجمع الفرس تحت زعامة « اكسيركس » عند نهر « ستريمون » قدم الماجيانيون أفراسا بيضاء ضحية للنهر كما قاموا بشعائر أخرى قبل عبوره • وبالمثل قدم « لوسولوس » على رأس الجيش الرومانى ثورا ضحية لنهر الفرات قبل أن يعبره • وكان « البروفيانيون » يقفون على شاطىء النهر ويأخذون جرعة منه ويشربونها ثم يتضرعون لاله النهر لكى يدعهم يعبرونه أو لكى يمنحهم السمك ، وبعد ذلك يرمون فيه حبوب الذرة لاسترضائه • بل ان الهنود الكولاديلاريين ما زالوا حتى اليوم يقومون بشعيرة تجرع جرعة من مياه النهر قبل أن يعبروه سيرا على الأقدام أو ممتطين ظهور الأفراس » • وكان سكان ويلز القدماء « يدقون الأرض بأرجلهم ثلاث مرات قبل أن يعبروا المجرى المائى فى الظلام . وذلك لكى يحولوا عنهم غضب الأرواح والسحرة »•

وتعتقد قبائل البلنتو التى تسكن فى افريقيا الجنوبية الشرقية أن « الأنهار تسكنها الشياطين أو الأرواح الشريرة ، ومن ثم كان من الواجب استرضاء هذه الأرواح قبل عبور مجرى مائى مجهول لديهم ، وذلك بالقاء حفنة من الذرة فيه أو أى شىء آخر ، وان لم تكن له أية قيمة فعلية » • وعندما يعبر الماسيون الذين يسكنون افريقيا الشرقية مجرى مائيا ، فانهم يرمون فيه بعض الحشائش بوصفها هبة له ، ذلك لأن الحشائش التى تعتمد عليها ماشيتهم فى غذائها ، تلعب دورا

أساسيا فى معتقدات الماسيين وطقوسهم • وقبل أن يخوض المسافر النهر عند « الباجانديين » الذين يسكنون افريقيا الوسطى ، فانه يسأل روح النهر أن يجعل عبوره آمنا ، ثم يرمى له ببعض حبوب البن منحة له • فاذا جرف التيار شخصا الى عرض الماء ، فان أصدقاءه لا يحاولون انقاذه ، لأنهم يخشون أن يأخذهم روح النهر كذلك إذا ماحاولوا انقاذ صديقهم الغريق ، ذلك أنهم يعتقدون أن الروح الذى يحرس هذا الشخص قد تركه تحت رحمة روح النهر ، ومن ثم فهو ميت لا محالة • وقد كانت توجد فى أماكن معينة عند نهرى « ناكيزا » و « سيزيبوا » فى أغوندا كومة من الأعشاب والعصى على كل من شاطئيه ، وكان كل من يعبر أحد النهرين يطرح بعض الأعشاب أو العصى على تلك الأكوام قبل أن يعبر النهر • وكان هذا بمثابة منحة لروح النهر حتى تضمن له عبوره الآمن • وكان الناس بين الحين والاخر يضعون عند هذه الأكوام منحا أغلى ثمنا ، كأن يحضرون معهم بعض الجعة أو حيوانا أو دجاجة أو بعض الأقمشة المصنوعة من لحاء الشجر ، ويربطون هذه الأشياء فى كومة الأعشاب أو العصى ويتركونها هناك ثم يرحلون بعد أن يصلوا لروح الماء • بل ان الكاهن كان يقوم بواجب التقديس لهذين النهرين، وان لم تكن توجد هناك معابد لهذا الغرض • وقد اشتهرت عشيرة « بين » بصفة خاصة بعبادتها لنهر « ناكيزا » ، وكان شيخ هذه العشيرة هو الكاهن • فاذا فاض النهر ، لم يكن يحاول أى فرد من أفراد هذه العشيرة أن يخوض فى النهر ، وكان الكاهن يمنعهم فى صرامة من العبور ، ومن كان يفعل ذلك منهم كان يقتل •

ويعترض مجرى نهر النيل عند مكان ما فى أعاليه يسمى « شلالات كاروما » ، صف من الأحجار العالية • وهناك تنحدر المياه عبر منحدر طويل أشبه بالبوابة الى عمق عشرة أقدام • وتحكى الرواية الشعبية أن هذه الاحجار وضعها « كاروما » الذى كان وسيطا أو أليفا للروح الكبير فى هذا المكان • فسر الروح الكبير بهذا الحاجز الذى شيده

خادمه وكافأه بأن أطلق اسمه على هذه الشلالات • وقد تعود ساحر أن يقف عند هذا المكان ليقود مثل هؤلاء الأتقياء الذين يودون عبور النهر • وعندما كان « سبيك » ورفقاؤه يعبرون نهر النيل عند هذا المكان ، ذبحت جماعة من « البانييورين » الذين كانوا يسافرون معه ، جديا عند كل شاطىء من شاطئيه بعد أن شقه طوليا وسط صدره وأمعائه ، ثم بسطوا الجديين على ظهريهما فوق الحشائش وفرو الشجر على نحو ما يبسط النسر ، ثم خطت فوقهما الجماعة المسافرة حتى تضمن نجاح رحلتها • وقد قام ساحر الشلالات بتوجيههم الى المكان المناسب لتقديم الضحية •

ويعد نهر « اتورى » أحد الروافد العليا لنهر الكنغو ، الحد الفاصل بين الأرض المعشبة والغابة الكبيرة • ، وعندما كنت على وشك أن أعبر بقاربى المياه الزرقاء المتدفقة فى سرعة ، تلك التى يبلغ اتساع مجراها مائة وخمسين ياردة ، أبصرت على الشاطىء المقابل لى شكلين مصغرين لبيتين بنيا عند حافة النهر تماما ويشبهان فى كافة تفصيلاتهما أكواخ الفلاحين • وقد أعرض الزعيم الشيخ عن أن يفسر لى مغزى هذين البيتين ، ولكننى أخبرت بعد لأى أنهما قد شيدا ليكونا هيئا للزعيم السالف الذى أمر بأن يعوض أرواح النهر عن الجهد الذى تبذله فى حراسة طرق الذين يعبرون النهر • ومنذ ذلك الوقت ، عندما توشك قافلة على العبور عند شاطىء النهر ، يحمل قليل من الطعام الى بيتى الأشباح اشارة لهم بأن القافلة تطلب حمايتهم لعبور النهر » • ويقوم « الأبويون » الذين يسكنون اقليم « أوكا » فى نيجيريا الجنوبيه بذبح شاة ودجاجة وتقديمها ضحية للنهر ، اذا كانوا يقومون بدفن جثة ميت ، وكان عليهم أن يحملوها عبر النهر » •

ويعتقد الباداجيون وهم قبيلة تسكن تلال « نيلجهيرى » فى الهند الجنوبية فى وجود اله يسمى « جانجاما » « يتواجد عند كل مجرى مائى بخاصة عند نهرى « كوندى » و « بيكار » • وقد كان من عادة

كل مالك لقطيع من الماشية أن يرمى فى هذين النهرين ، إن شاء أن يعبرهما فى أثناء فيضانهما ، بربع روبية ، اذ كان يحدث دائما أن يجرف تيارهما قطعان ما شيتهم ويغرقاها • ومن بين الآثام الكبيرة التى كانت تعدد للشخص المتوفى فى أثناء القيام بشعائر جنازته ، أنه قد عبر النهر دون أن يدفع دية الولاء للاله جانجاما » • وكذلك كان ينظر « التودايون » وهم قبيلة صغيرة ، وان تكن اكثر شهرة من سائر القبائل التى تسكن هذه التلال نفسها ، الى نهرى « تاييباكه ــ بايكارا » و « باكهوار ــ أفالانشى » بوصفهما الهين أو مأوى الهين • وقد كان يتحتم على كل من يعبر هذين النهرين أن يخرج يديه من ردائه علامة على التبجيل • وفى الزمن الماضى لم يكن يسمح للناس بعبور هذين النهرين الا فى أيام محددة من الاسبوع • فاذا عبر هذين النهرين المقدسين رجلان يكونان ابنين لأخ وأخته ، فانه يتحتم عليهما أن يؤديا شعائر خاصة ، فاذا اقتربا من أحد النهرين فانهما يقطفان بعض الحشائش ويمضغانها ، ويقول أحدهما للآخر : « هل سأنتصر على النهر ؟ هل سأتمكن من عبور النهر ؟ » • ثم يذهبان الى الشاطىء ، ويغمس كل منهما يده فى الماء ثلاث مرات ويملؤها بالماء ويرميه بعيدا عنه • ثم يعبران النهر بعد ذلك وقد أخرج كل منهما يده خارج ردائه على النحو المألوف •

وقد أحرقت جثة زعيم مشهور من قبيلة « أنجونى » التى تسكن افريقيا الوسطى البريطانية ، بجوار نهر من الأنهار • بل انه من عادة هذه القبيلة حتى اليوم أن يحيوا النهر عند عبورهم له بتحية عميقة تخرج من أعماق حناجرهم ولا يحيون بها الا ملوكهم • واذا عبر أحدهم أى نهر من الأنهار فى قارب ، فانه يعترف أمامه بكل آثام خيانته التى كان متهما بها فى حق رفاقه • وهو يفعل هذا فيما يبدو ، بناء على تصوره أنه ان لم يفعل هذا فسوف يغرق فى النهر • ويعتقد « الترود ــ جانيون » الذين يسكنون «سيليبيس الوسطى »أن أرواح المياه التى تتقمص أشكال حيات تسكن البحيرات العميقة ومنحدرات الأنهار •

ومن ثم فان الناس يتخذون حذرهم من هذه الكائنات الخطيرة • فاذا كان التروارادجى على وشك أن يقوم برحلة عبر النهر ، فانه غالبا ما يصيح وهو واقف على الشاطىء ويقول : « لن أقوم بهذه الرحلة اليوم ، ساقوم بها غدا » • فاذا استمعت الأرواح الى هذا القول ، وكان من بينهما روح يتربص بالمسافر ، فان هذا الروح يصدق أن رحلة هـذا الرجل قد تأجلت حقا الى الغد ؛ ومن ثم فهو يؤجل كذلك طعنته لـه الى اليـوم التالى • وفى أثناء ذلك يهبط التروارد جانى المـاكر الى النهر فى هدوء ، وهو يسخر فى أكمامه من سذاجة روح المـاء الذى استطاع أن يخـدعه •

وعلى الرغم من أن الأسـباب الحقيقية التى تدعو الى اتباع هذه العادات التى تختص بتقديس الأنهار ستظل مجهولة لنا ؛ الا أنه يبدو أن الدافع العام وراء اتباعها هو الخوف والفزع من الأنهار التى ينظر اليها إما على أنها كائنات مشخصة قوية أو انها مأوى لأرواح قوية • وتتضح كل الوضوح فكرة أن النهر كائن مشخص فى هيئة نهر من خلال عادة تنتشر بين « الكاكهيين » الذى يسـكنون بورما الشمالية • فاذا حدث ان غرق أحدهم فى النهر فى أثناء عبوره ، فان الشخص الذى يقع على عاتقه الانتقام من النهر يتردد على شواطىء النهر الآثم مـرة كل عام ، ويملأ وعاء بمائه ويضربه بسيفه كما لو كان يضرب عـدوا آدميا • وقد حدث ذات مرة فيما يقال ، أن فاض نهر النيل حتى غطى الأرض بمقدار ثمانيـة عشر زراعا ، وأخذت الرياح القـوية تقذف بالأمواج على بعد ؛ وعند ذلك أمسك فرعون برمحه وأخذ يضرب بـه التيار الجارف ، ولكنه عوقب بسبب اندفاعه وقلة ورعه بفقد بصره • ومرة أخرى نقرأ أنه عندما سار « كيروس » لغزو تابل ، وكان يعبر نهر « جيندييس » ، جرف التيار أحد أفراسه البيضاء المقدسة التى كانت تصاحب الجيش فى مسيرته وأغرقه • فهدد المالك النهر وهو فى ثـورة غضبه من ارتكاب النهر لهذا الجرم ضد مقدساته ، بأن يجعل مياهـه ضحلة حتى يمكن المرأة أن تخوض فيها دون أن تبتل ركبتاها • وبناء

على ذلك أمر جيشه بحفر قنوات تحولت اليها مياه النهر من مجراه الرئيسى • وبهذا انشغل الجيش طوال الصيف فى تحقيق الرغبة الطفولية لهذا الطاغية المستطير ، بدلا من أن ينشغلوا بغزو بابل •

وليست أرواح الأنهار هى الكائنات الالهية الوحيدة التى حاربها الرجال الجريئون أو عاقبوها • فعندما أطاحت العاصفة بأول جسر شيده « اكسيركس » عند « هيليس بونت » ليمر عليه جيشه ، أصدر الملك حكمه على المضيق فى ثورة من غضبه بأن يضربه ثلاثمائة ضربة وأن يقيده بالسلاسل • وبينما كان الناس ينفذون هذا الحكم ويضربون المياه بأسواطهم ، كانوا يصيحون : « أيتها المياه المرة ، ان سيدك قد أنزل بك هذا العقاب لأنك أخطأت فى حقه ، وهو الذى لم يسبق له أن أخطأ فى حقك • وسوف يعبرك الملك اكسيركس طوعا أو كرها • وانك لتستحقين الا يقدم أحد لك الضحية لأنك مياه مخادعة ومذاقك مر » • وقد قيل : أن الكلتيين القدماء كانوا يخوضون وسط الأمواج وهى تتخبط على الشاطىء ، ويضربونها بسيوفهم ورماحهم ، كما كانوا يريدون اصابة المحيط نفسه بجراح أو بث الرعب فى نفسه • ويحكى الترودجايون الذين يسكنون « سيليبس الوسطى » أن قبيلة من قبائلهم كانت تشتهر بتصرفاتهم الحمقاء ، جاءت الى شاطىء البحر فى أثناء جزره ، وابتنوا فى الحال كوخا عند شاطىء المياه مباشرة • فلما جاء مد البحر ، وهدد الكوخ ، تصوروا أن البحر كائن مهول يريد أن يبتلعهم ، ومن ثم فقد حاولوا تهدئة غضبه بأن رموا له بكل مؤونة أرزهم • ولكن لما استمر المد فى الازدياد ، هووا على الماء بسيوفهم ، ورماحهم وسكاكينهم القاطعة ، بقصد اصابة الكائن الخطير بجراح أو إفزاعه حتى يضطر الى التراجع • كما حدث ذات مرة أنه عندما كانت جماعة من « الأرافوويين » ، وهم قبيلة جبلية تسكن الساحل الشمالى التابع لغينيا الجديدة التابعة للاحتلال الهولندى ، تلهو بين الأمواج ، جرفت منحسرة ثلاثة منهم وأغرقتهم • ولكى ينتقم رفقاؤهم لغرقهم ، صوبوا بنادقهم وسهامهم ورماحهم عدة

ساعات الى الأمواج المتلاطمة • وربما مكنتنا هذه الحكايات التى تشخص المياه بوصفها كائنا حيا يمكن أن يعتريه الفزع وأن تقهره القوة الجسدية ، من تفسير مغامرة يعقوب الغريبة عند مخاضة نهر اليبوق •

أما ما يحكى من أن يعقوب أصيب فى عصب معين فى فخذه اثناء صراعه مع خصمه الذى ظهر له فى أثناء الليل ، فمن الواضح أنها محاولة لتفسير امتناع العبريين عن أكل الجزء المقابل لهذا عند الحيوان • وكل من هذه الحكاية وتلك العادة ، لها ما يماثلهما لدى بعض القبائل الهندية التى تسكن أمريكا الشمالية ، هؤلاء الذين يقطعون على الدوام باطن ركبة الغزال الذى يذبحونه ويرمونها • ويقدم الهنود الشيروكيون سببين لاتباع هذه العادة : أولهما « أنه عندما يتمزق هذا العصب ، يتقلص داخل اللحم ، ومن ثم فكل من يأكل ، لسوء حظه ، من هذا الجزء فان أطرافه تتقلص على هذا النحو » • أما السبب الثانى فهو أنه اذا أكل الصياد هذا الجزء ولم يفصله ويرمه ، سرعان ما يحل به التعب فى رحلته ، وكلا السببين يشير الى عقيدة سحر المشاركة ، وان كان مفعول السحر يختلف فى كلا السببين ، فالسبب الأول يفترض أنه اذا أكل شخص من الجزء الذى تقلصت العضلة بداخله ، فان الجزء المقابل لذلك فى جسم الانسان يتقلص كذلك • أما السبب الثانى فيبدو أنه يفترض أنك اذا قطعت العصب الذى لا يستطيع الغزال السير بدونه ، فانك بالمثل تكون عاجزا عن السير على هذا النحو • وكلا السببين يرتبط كل الارتباط بفلسفة الانسان البدائى • وربما كان أحد التفسيرين كافيا لفهم مثل هذا التحريم عند العبريين • ويمدنا سفر التكوين ، وفقا لهذه النظرية ، بقانون دينى لعادة كانت ترتكز فى الأصل على عقيدة سحر المشاركة وحدها •

وحكاية صراع يعقوب مع الشيخ الذى ظهر له فى الليل ، بقصد انتزاع البركة من خصمه المتمنع قبل الغسق ، لها ما يناظرها فى خرافات

المكسيكيين القدماء • فقد كان هؤلاء يعتقدون أن الاله الكبير « تزكاتليبوكا » تعود أن يتجول فى أثناء الليل فى هيئة مارد يلتف فى ملاءة ذات لون ومادى ويمسك رأسه بيديه • وعندما أبصر الناس الجبناء هذا الشبح المخيف • سقطوا على الأرض مغشيا عليهم ، وماتوا اثر ذلك • على أن رجلا شجاعا من بينهم أمسك بالشبح وأخبره بأنه لن يتركه يرحل حتى تشرق الشمس • فتوسل الشبح اليه أن يتركه ، وهدده بأنه ان لم يفعل ذلك فسوف يحل عليه اللعنة • وكان على الرجل ان شاء أن ينتصر على الشبح المخيف ، أن يظل ممسكا به بشدة الى أن توشك الشمس على البزوع • فاذا نجح فى هذا غير الشبح من نغمته ، ووافق على أن يمنح الرجل أى هبة يطلبها مثل الثروة والقوة التى لا تقهر ، بشرط أن يرفع الرجل يده عن الشبح ويدعه يرحل قبل الغسق • وقد تسلم الانسان المنتصر من خصمه المهول الذى انهزم فى مشادة عنيفة مع الانسان أربع شوكات من نوع معين علامة على نصره • وطبيعى أن مثل هذا الرجل الجرىء ينتزع قلب الشبح من صدره ويلفه فى قطعة من القماش ويحمله معه الى بيته•ولكنه عندما عاد الرجل بغنيمته الى بيته ، وخلع النقاب عنها لم يجد شيئا سوى بعض الريش الأبيض أو شوكة أو ربما حفنة من الرماد أو طنفسة مهلهلة •